مدخـل بقـلم المؤلف

(١)

نبهنى بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقـدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابى « الفولكلور فى العهـد القـديم » ، الذى يقع فى ثلاثة أجـزاء ضـخمة ، أو الذين لا يجـدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب • ولهـذا فقد قمت باعداد هـذا الموجز تقـديرا منى لهـذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها • ولكى أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصـفة خاصة ، القدر الأكبر من الهـوامش التى تحتـوى على الشـواهد المقتبسة من أعمـال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك فى بعض الأحوال النـادرة التى كنت أرغب فيها فى تقديم تفسـير ما ، أو أرى من الضرورى — فى مجال الاستشهاد بنص من العهـد القديم — أن أبدى الأسـباب التى دعتنى الى أن أتبنى قراءة مخالفـة لتلك التى أخذت بهـا الترجمـة الانجليزية الرسـمية أو المعتمـدة للعهـد القديم • أما القراء الذين يرغبون فى التعرف على الأصول الخاصـة بأى موضـوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التى تحتوى على كثير من الوثائق ••

ولقد لاحظ « رينان » أن التـاريخ البشرى لا يقـدم للعقـل الفلسفى المشتغل بالبحث عن أصـول الأشياء سـوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هى : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بنى اسرائيل ، وتاريخ روما • ويمكننا الآن — على سبيل المثال — أن نضيف الى هذه التواريخ الثـلاثة التى تعتمد جميعهـا على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعـا على الأقل ، هو تاريخ البشرية فى العصور والبـلاد التى لم تكن تعـرف

الكتابة • فمنذ أن قدم رينـــان للعالم تاريخه الكبير عن بنى اسرائيـــل وعن المسيحية فى عصـــورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التـــاريخ البشرى اتساعا وغنى ، ســـواء عن طريق الكشـــوف الأثرية لعصور ما قبـــل التاريخ أو نتيجة لدراســـة الأجناس البدائية على نحـــو أكثر دقة ، تلك الأجناس التى تقدم الينا صـــورة دقيقة ـــ على نحـــو أو آخـــر ـــ لمراحل التطـــور الاجتمـــاعى المختلفة التى اجتازها قديمـــا أســـلاف الأجناس المتحضرة • وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الى حد ما ، ذلك القنـــاع الذى ظل مســـدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا ـــ ان جاز لنا هذا التعبير ـــ خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة فى طريق الباحثين عما وراء نطـــاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنـــا آفاقا تبدو لا نهـــائية للفـــكر البشرى ونشـــاطه فى تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل فى اطـــار الحيـــاة الانسانية المتحضرة • ومن ثم ظهرت هذه الحماســـة التى صاحبت الدراســـات الفولكلورية ودراســـة الآثار القديمة فىالوقت الراهن ، فى نطـــاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم • ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشـــكل وجهة نظرنا المستنيرة فى أيامنا هـــذه وتحور فيهـــا بدأت مناهج البحث الانســـانى هذه تؤثر فى حركة الفكر العـــامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته فى أذهاننا صـــور التقـــدم المثيرة التى أحرزتها العـــلوم الطبيعية • فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك لانســـانى من الصعب فصـــله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعـــلم الآثار القديمة يلقيـــان عليها مزيدا من الضوء ••

وقد حاولت فى هـــذا الكتاب أن أســـير على هدى الدراســـات الفولكلورية متعقبـــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القـــدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى

تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجـاح فى هذه لمحـاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضـوء أكثر صدقا ؛ وان يكن أقل رومانسـية ، بوصفهم شـعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشـعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسـودها الجهـل والهمجية ، وذلك عن طرق عملية انتخـاب طبيعى بطيئة ••

(٢)

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتها الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيـد ، مؤداها أن كل الأجنـاس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخـر ، من المرحـلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشـعوب المتأخـرة تعيشها اليوم • كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هنـاك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير ما تزال ماثلة فى عادات الناس وتقـاليدهم ــ حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمـن طويل عن التفكير والسـلوك الهمجيين • وهذه الآثار الباقيـة تدخـل فى اختصـاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعـرفه ، بمعناه الواسع ، بأنه العـلم الذى يستوعب مجموعة المعتقدات والعادات المأثورة لدى شـعب من الشعوب ؛ مادام مرد هـذه لمعتقـدات والعـادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى • وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطـور دينى ، فليس هنـاك ما يدعو لافتراض أنهم قد شـذوا عن هذا القانون العـام ؛ اذ المحتمل أنهم أيضـا قد مروا بمرحـلة بربرية بل همجية • وهذا الاحتمال ، الذى يرتكز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشـابه ، تؤيده النظرة الفاحصـة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضمن كثيرا من الاشـارات الى معتقداتهم

وعاداتهم التى لا يمكن أن تفسر الا من خـــلال افتراض أنهـــا مخلفات باقية من مستوى حضـــارى أشد انخفاضا بكثير • ومن ثم كان موضوع دراستى هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية التى تنتمى الى عصـــور بدائية ، والتى يحتفظ بها العهـــد القديم كأنها حفريات • ولقد أتيحت لى الفرصـــة من قبل فى غير هـــذا الكتاب لأن أضع يدى على آثار بدائية أخـــرى يتضمنها العهد القـــديم ، لها نظائرها عند القبـــائل الهمجية ، مثـــل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس النســـاء ، ثم عادة تقـــديم ذبيحة الخطيئة [1] Scapegoat ولكن حيث اننى لا أود أن أكرر ما ســـبق أن ذكرته حـــول هذه الموضـــوعات ، فاننى أكتفى باحالة القارىء الذى يرغب فى البحث فيهـــا ، الى كتاباتى الأخـــرى • •

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضـــارة من آثار بدائيـــة هو المنهج المقـــارن ، فهـــو يمكننا ، فيما يتصـــل بالعقل الانســـانى ، من أن نقتفى أثر تطـــور الانســـان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجـــة التى يمكننا بها ، فيما يتصـــل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره جســـديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية • وباختصـــار فان هناك تشريحا مقارنا للعقل ، كما أن هناك تشريحا مقـــارنا للجسم • وتشريح العقـــل تبشر نتائجه البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنســـبة لمستقبل

---

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .
« يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون « تيس عزازيل » وهى تعنى فى علم الانثروبولوجيا ان شخصا او شيئا او حيوانا يحمل خطايا الفرد او المجتمع او يحمل ما يبتلى به الفرد او المجتمع من امراض وكوارث ، ومن ثم فان هذا الشخص او الشىء او الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح الى عادة عبرية قديمة ، اذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للاله تكفيرا عن ذنوب الشعب او الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة فى أمر ما . فهو ينسب اليه التقصير لا الى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من اشكال الاسقاط . (المترجمة)

الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظرية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك • وليس بدعا أن نطبق المنهج المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد استخدم العالم لفرنسى صموئيل بوشار القس هذا المنهج فى القرن السابع عشر فى فرنسا استخداما ناجحا ، كما استخدمه فى انجلترا رجل الدين العالم « جون اسبنسر » رئيس كلية « جسد المسيح » Corpus Christi بجامعة كمبردج • وقد قيل عن كتابه الذى ألفه حول قوانين الطقوس لدى العبريين القدماء أنه أرسى دعائم الأديان المقارن • أما فى عصرنا ، وبعد قرنين من الزمان ، فقد استأنف أستاذى المبجل وصديقى « وليم روبرتسون سميث » فى كمبردج العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان • ويرجع التقدم الذى أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبكرة جدا الى حد بعيد ، الى أثره القوى الذى ظفرت به هذه الدراسة بفضل عبقريته الخارقة وعلمه • وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هؤلاء المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العلم ، وأن أسير به قدما بما يمكننى من أن أسمح لنفسى بأن أسميه تراث كمبردج فى الأديان المقارنة •

ومن المسلمات الشائعة أن الوصول الى حل كامل لمشكلة ما يتضمن حلا لمشكلات أخرى كثيرة • ولكن لا ، فالقليل من العلم بكل شىء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط أشكال البحث • وبناء على ذلك ، فان فحص مسألة فولكلورية ، بخاصة فى المرحلة الأولية الراهنة لهذه الدراسة ، من الطبيعى أن يفتح مجالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة • واننا لننساق بطريقة عفوية — فى أثناء تتبعنا لمجالات هذا التساؤل — الى آفاق من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة التى بدأنا منها • أو — بتعبير أدق — حتى لتبدو النقطة التى بدأنا منها فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عدد كبير من الظواهر

المماثلة • وأن ما صادفته منـذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقى أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصـادفنى الآن وأنا أتهيأ لمناقشـة مسـائل بعينها فى فولكلور العبريين القـدماء • فقد حدث أن البحث فى أسطورة معينة أو عـادة أو قانون قد تشعب بى فى بعض الأحيـان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رسـالة • ولكننى آمل ـ بعيـدا عمـا تضمنته أبحاثى من رأى متعجـل فى تراث الاسرائيليين وعاداتهم ـ أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اسـهام فى دراسة الفولكلور بصفة عامة • ان هذه الدراسـة لاتزال فى مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضـوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصـنف فيهـا الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تسـتقر فيها تلك الحقائق الى الأبـد • وفى هذه الأحوال يقـدم البـاحث المخلص فى مجـال الفولكلور فى الوقت الحاضر نتائج بحثه فى قـدر من التهيب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى فى متناول يده من صـعوبة وحاجة الى التمحيص ••

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما • واذا كنت فى أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الـذى أتجه به الى الآخـرين ، وعبرت عن نفسى فى صـورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارىء أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعـا ، عن طريق اعلان هذا النوع من التشكك العام المخلص ••

وقد حاولت فى هذا البحث أن أضـع فى الاعتبار النتـائج التى توصـل اليها أشهر النقـاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها • ذلك أننى أعتقـد أن كثيرا من المتناقضات الجلية فى الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفسـيرا منطقيا وتاريخيا معقولا الا فى ضـوء هذه النتائج • أما النصـوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بألفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القـديم » •

ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمة الانجليزية وأن أفضل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضل عليها — فى مواضع قليلة للغاية — قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول أننى اذا كنت قد قرأت العهد القديم كله باللغة العبرية قراءة فاحصة ؛ وبجانبى « الترجمة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بلباقة المترجمين والمنقحين على السواء ، تلك اللياقة الفائقة فى اختيارهم لعباراتهم مع اخلاصهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصلى • ان « الترجمة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » فى جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يبزها بدون شك ؛ بوصفها نصا مترجما ، أى عمل أدبى آخر ، بل المحتمل أنه ليس هناك عمل أدبى آخر يقف معها على قدم المساواة ••

لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع الآثار الهمجية والخرافية ، تلك الآثار التى تنتشر فى صفحاته • واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهل الجانب الأعلى من العبقرية العبرية التى كشفت عن نفسها فى ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها • •